استدعاء البياتي لرمز الشيخ الصوفي المثنوي جلال الدين الرومي

أ.عطار خالد
جامعة غليزان.

الموضوع العام الّذي تدور حوله أشعار الصّوفية هو "الحب"، فما من كلمة لهجوا بها، وترنموا بها في أناشيدهم مثل "الحب"، فالحب مذهبهم وطريقهم للاتحاد، و الحلول. وقد سار جلال الدّين الرّومي على طريق شيوخه، فنجد الكثرة الكاثرة من شعره تدور في فلك الحب ولوازمه من شرح الأشواق، وشكوى البعد والهجر، ولوعة الفراق، إلى متعة النّجوى، ورفعة المشاهدة، ولذة القرب والوصال إلي رحاب الفناء. وإذا كان كلّ صوفي قد اتخذ رمزا من الرموز طريقا للكشف عن تباريح العشق الإلهي، فإن جلال الدّين الرّومي [1] قد جعل أحد شيوخه طريقا إلى ذلك في ديوانه "شمس تبريز".[2]

والبيّاتي في سعيه لإتمام رؤاه الصّوفية، يتقنع بالمولوي جلال الدّين، ويعمد إلى هذا الدّيوان، ويقوم بامتصاص بعض أبياته بالخصوص الجزء الّذي يتحدث عن الموسيقى، وما ترمز إليه من إشارات روحانية. ويكتب قصيدته "قراءة في ديوان شمس تبريز لجلال الدّين الرّومي"

عند تحليل الدّلالات الّتي يفصح عنها خطاب العنوان في بنيته السّطحية والعميقة يحيلنا إلى مايلي :

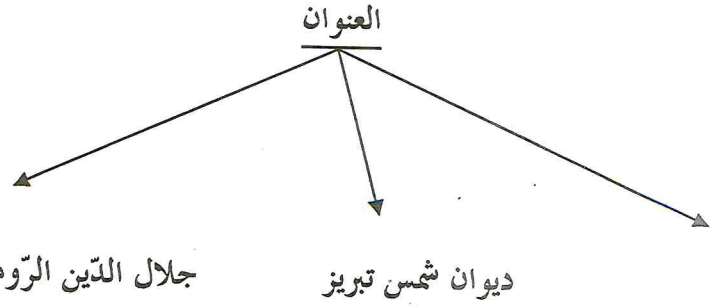

من خلال هذا المشجر نلاحظ سيطرة النّصّ الغائب على العنوان والمتمثل في " ديوان شمس تبريز لجلال الدّين الرّومي". فأمّا لفظ القراءة فهو مصطلح نقدي يقتضي الولوج إلى خفايا النّصّ لمحاولة فك شفراته البنائية، وهذه القراءة تفرض التّسلح بخلفية ثقافية مرجعية تفضي إلى النّصّ الغائب المسيطر على البنية التّركيبية للعنوان :

أ- **شمس تبريز :** يحيل هذا التّركيب الخطابي إلى ديوان جلال الدّين الرّومي الّذي كتبه كاشفا فيه عن حبه لشيخه "شمس الدّين بن محمد ملكداد التّبريزي " وتذكر المراجع الّتي تناولت حياة المولوي [3] أن شمس الدّين (580هـ/640) كان درويشا غريب الأطوار يؤمن بأفكار مناقضة لكلّ ما يؤمن به الصّوفية « إن شمس كان عارفا فريدا في بابه، ثائرا متمردا رافضا لكل مايؤمن به القوم رفضا تاما ..كان يحس دائما أنّ فيه شيئا لم يدركه شيوخه الّذين حضر عليهم » [4] حتى التقى بجلال الدّين الرّومي في موكب من مريديه، وجرت بينهما محادثة قصيرة أغمي فيها على جلال الدّين، وعند استعادته لوعيه، أخذ شمسا إلى مدرسته واعتزل النّاس معه في خلوة قيل دامت بين أربعين و تسعين يوما ، وهم صيام، فكان شمس بمثابة الأستاذ الرّوحي للرومي، حتى أنه لم يعد يصبر عليه، الأمر الّذي دفع مريديه إلى قتل شمس، ليتفرغ لهم شيخهم بعد أن أفسده هذا الزّائر الغريب بحسبهم، وخفي الأمر عن جلال الدّين و بحث عن شيخه في كل مكان حتى أنه سافر إلى الشّام باحثا عنه و لكن

دون فائدة، فعاد إلى " قوانيه " واعتزل النّاس وهامت نفسه تقصّد القَصيد في هذا الشّيخ الجليل، وكانت قصائده في جوهرها تنشد الحب الإلهي المقدس من خلال تعابير الحب لشمس الدّين، ومما قال في شيخه :

لستُ أنا وحدِي الّذي أنشدُ شمسَ الدّينِ شمسَ الدّينْ

بلْ يغنّيهِ العندليبُ من الرّياضِ و القطا من الجبالْ

فالنّهارُ المضيءُ هو شمسُ الدّينْ .و الفلكُ الدّوارُ شمسُ الدّينْ

وشمسُ الدّينِ عيسويُّ الفنِ، و شمسُ الدّينِ في جمالِ يوسفْ [5]

إذا فديوان "شمس تبريز" هو ديوان في الحب الإلهي الدّائم من خلال الإفصاح عن تباريح الحبّ الّتي يكنها المولوي لأستاذه، و كان مما أخذه عنه ولوعه بالموسيقى، و الرّقص الصّوفي، فأبعده بها عن علم الأوراق، وأورثه عالم الألحان الّتي يتقرب بها إلى اللّه فكان يقول:

‹‹ صوت الرّبَابِ هو صرير بَابَ الجنة الّذي نَسْمَعهُ ››[6] وهذه الرّموز الّتي تجمع الفن بالحبّ الإلهي، هي الّتي آثارت انتباه "البيّاتي" فتمثلها في قصيدة "قراءة في ديوان شمس تبريز لجلال الدّين الرّومي" التي تسير في سبعة مقاطع يتقنع فيها بالمولوي جلال الدين، و يدخله في علاقة حبّ مع رمزه الأسطوري الخالد "عائشة " الّتي تتبادل الأدوار في هذه القصيدة مع الشّيخ "شمس الدّين التّبريزي".

يقول في المقطع الأول مستحضرا عائشة عشقه الأبدي :

قالتْ عائشةُ للناي الباكي: منْ يقتلُ هذا الشّاعرَ أوْ يعتقهُ من نارِ الحبِّ الأبديةِ، ها هو ذا أوغلَ في السّكرْ وأصبحَ بي مجنونا، و أنا أصبحتُ بهِ ...أيضَا.

و كلانا مجنونٌ سكرانْ يبحث عنْ وجهِ الآخرِ في ألحانْ. [7]

"عائشة" في شعر البياتي ما هي إلا "عشتار" الّتي تزور كل عام عالم الموتى لترى حبيبها "تموز" ثم تقفل راجعة وفي عودتها عودةٌ للحياة وتجدّد وبعث بعد قحط وجدب، فعائشة تعلو نصَّ القصيدة وتدير الحوار بعد أنْ تتقمص شخصية معشوق جلال الدّين الرّومي "شمس الدّين"، و لأن جلال الدّين ما هو إلاّ "البيّاتي" تتشكل البنية الدّلالية لتأخذ هذا الشّكل :

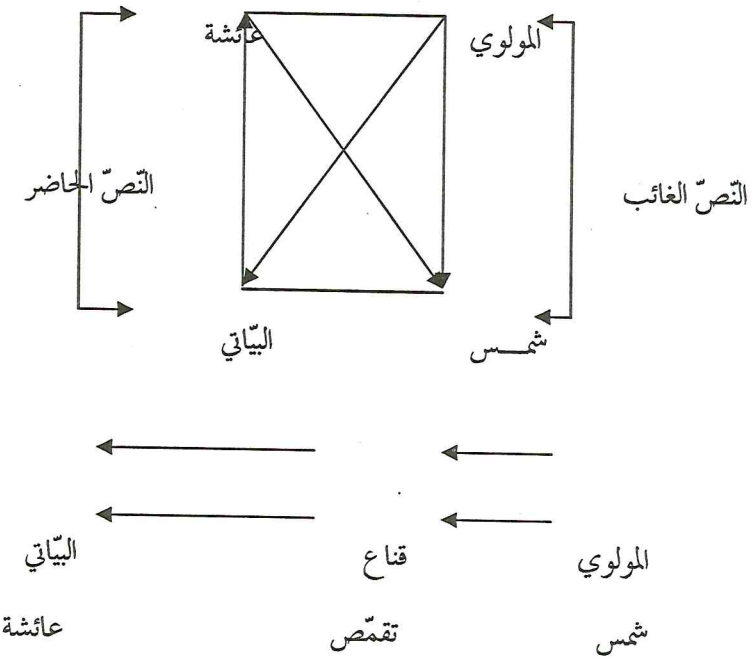

فالبيّاتي باستحضاره لعائشة يريدها أن تكون دليلا على وجوده داخل النّصّ، فهو يتقنع بالرّومي، و لكنه يرفض معشوقه، و يستدعي معشوقته الّتي تتلبس "بشمس الدّين"، وبالتّالي فإذا كان المولوي يناجي الحضرة الإلهية من خلال شمس، فالبيّاتي يناجي "عائشة" أو"عشتار" رمز الخلاص من الزّمن الموبوء، الّذي يعيشه فهو يعبر عن رؤيا خاصة من خلال رؤيا صوفية .

ونصادف في بداية القصيدة ما يحيل إلى جلال الدّين الرّومي باستدعاء رمز من رموز ديوان شمس تبريز وهو"النّاي"، و"النّاي الباكي" ما هو إلاّ البيّاتي الّذي يستحضر قول جلال الدّين :

استمعْ إلى النّاي كيفَ يقصُّ حكايةً، و يشكو الفراقَ قائلا :

منذُ أنْ فصلتُ عنِ القصباءِ ، جعلَ نواحِي الرّجالَ و النّساءَ يئنون [8] أي أن الإنسان الّذي قطع من أرضه ووجوده الأزلي كما يقطع النّاي من قصبته، يغدو مرجعا للصدى في الهجران ويذيع أسرار العشق و الشّوق.[9] وهو نفس المصير الّذي لقاه "البيّاتي" حين قطع عن أرضه العراق بالنّفي، و ها هو كالنّاي الباكي يردد أسرار العشق و الشّوق للعراق.

ثم يعود البيّاتي إلى قناعه ليسلط النّور على حقبة من تاريخه حين التقى بالشّيخ شمس الدّين

ها هو ذا شمسُ الدّينْ

يشرقُ من "تبريزْ"

يمنحني بركاتِ العاشقِ و المعشوقْ

و كِلانا ثملٌ مجنونْ

المعشوق هو الكلُّ الحيّ، و أمَّا العاشق

فهو حجابٌ وهُو الميْتْ

برمادِ حريقٍ أتغشَّى و بأسمالِ الفقراء

أمسكُ كأسَ شرابي بيدٍ، و بأخرَى شعرَ حَبيبي

أرقصُ عبرَ الميدانْ

في أحشائِيَ نارٌ لا تخبُو، فلماذا لا تحرقُنِي النّارُ ؟

ها أنذا أضعُ الكفنَ الأبيضَ و السّيفَ أمامكَ

فلتضربْ عنقِي وأنا سكرانْ [10]

فهاهو المولوي يستقبل شيخه شمس الدّين الّذي أشرق من تبريز فيمنحنه بركات العاشق والمعشوق، والبركات بالنّسبة للمولوي هي بركات "شمس الدّين" العاشق و بركات "اللّه" المعشوق، أما بالنّسبة للبياتي فهي بركات مولانا جلال الدّين وشيخه.

و يستمر القناع يعبر عن هيامه و غيابه عن عالم الحقيقة منتشيا بالسّكر، والسّكر عند الصّوفية رمز الفناء في المحبوب.[11] وفي السّطر الأخير يستحضر الشّاعر بطريقة إشارية قول جلال الدّين :

أسلمتُ وجهِي كالدّفِ

فاقرعْ قرعاتٍ و أَعْطِ لوجهِي ضربةَ قفَا.[12]

فالضّرب في الآلات الموسيقية للدف، هو رمز حكمة إلهية جعلت كل إنسان يرقص ويطرب، ويسمو إلى علياء الحضرة السّماوية و يفنى فيها .

وفي المقطع الثّاني يُدخل البيّاتي قناعه في عتاب شديد للحضرة الإلهية لأخذها الشّيخ "شمس الدّين" عنه، وهو بالنّسبة إليه القلب، والنّفس، والعالم .

أما في المقطع الثّالث فيتوحد البيّاتي مع قناعه لمواجهة النّفاق والطّغيان والاستبداد.

ديكٌ مخصيّ بثيابِ النّظامْ

ينطحُ صخرَ قوافِي الشّعرِ الموطوءِ و يخفي عورتهُ بالأوزانْ

قالَ الخادمُ لسيّدهِ السّلطانْ

سـأجيءُ، بـرأسِ الـشّاعرِ هـذا، حتّـى لـو كـانَ يُـصلّي في المسجدِ أو في الحانةِ سكرانْ.

ينطلق "البيّاتي" للتعبير عن رفضه للظلم من شعراء النّظام و المتطفلين على الشّعر الّذين تتحطم قصائدهم المهزومة على صخرة أوزان الشّعر الصّلبة، هذا المنافق الّذي يريد أن يقتل شاعر الحقيقة والنّور سواء أكان داخل المسجد (جلال الدّين الرّومي) أم داخل الحانة (البيّاتي) .

و في المقطع الرّابع تعود "عائشة"، ولكنها تبدو في صورة أقل بهاءً ممّا كانت عليه في المقطع الأوّل يقول البيّاتي:

ينهشُ صدري رخٌّ أسطوريّ رافقَ رحلاتِ الرّجلِ المجهولِ إلى أصقاعِ الدّنيا، كانَ "سنائي" و "العطارْ" .

رفيقيْ رحلتهِ الأُولى ينهشُ صدري و أنا أسمعُ عائشةَ تبْكِي في بستانِ طفُولَتِهَا كانتْ للرجلِ المجهولِ القادمِ من مدنِ العشقِ السّبعِ يقولُ بحزنٍ كان فِرَاقا مرّاً، فافعلْ ما كنتَ تريدُ سوى هذا يا هذا مجنونٌ أنتَ وسكرانْ و أراها شاحبةً تقفزُ من فوقِ السّورِ إلى البستانْ ببنفسجِ عينيها تختبئُ امرأةٌ وحريقٌ ودخانٌ ومحبونَ يأتونَ ويمضونْ و أنا ثملٌ مجنونْ أسمعهَا وأراهَا في حقلِ بنفسجٍ امرأةً تتوهّجُ تتلاشَى في زبدِ النّورِ و تولدْ .[13]

كلما حضرت عائشة يحضر معها "البيّاتي"، و يقلّ توهّج قناعه إلاّ في القليل، إذ تسيطر على هذا المقطع مسحة من الآسي والكآبة جعلت الشّاعر يندفع نحو الأسطورة والرّوحانية والغموض، فتغيب الدّلالة و يصعب الوقوف عليها لولا بعض الإشارات المرجعية. فالرّخّ هو الطّائر الّذي حمل سندباد، وهو يرمز إلى الشّيخ شمس الّذي رحل بالرّومي في عالم التّصوف من مقام إلى آخر وغيّر حياته، وهو ينهش صدره كما نهش صدر "برميثيوس" سارقِ النّار

المقدسة، إشارة إلى عذاب الشّوق الّذي انتاب الرّومي بعد رحيل شيخه، وما يشير إلى هذه الدّلالة استدعاء "السّنائي و العطار[14] " فهما رفيقا رحلته، والمخطط يشير إلى هذا التّشابك الرّمزي :

الرّخّ ← شمس الدّين التّبريزي .

السّندباد ← جلال الدّين الرّومي .

برميثيوس ← جلال الدّين الرّومي .

الرّخ + سندباد = تغير حال المولوي بلقاء شمس الدّين .

الرّخ + برميثيوس= العذاب الّذي عناه المولوي بسبب شمس الدّين .

و تسيطر عائشة على بقية المقطع لتتحول رمزا لكل المحبين يستأنس بها الشّاعر، يسمعها و يراها تختفي وتعود، فما هي إلاّ "عشتار" الّتي تغيب لتعود حاملة معها الرّبيع والحياة إلى الأرض .

و المقطع الخامس هو ذاته المقطع الثّالث يتكرر، و التّكرار ظاهرة أسلوبية، تكشف هنا شعور جلال الدّين الرّومي بالحزن والأسى الّذي ولّدَ العتاب للقدر لأنه حرمه من شيخه الّذي يمثل بعديه الدّاخلي و الخارجي خطفت مني قلبي/ سلبت مني نفسي/ أخذت مني العالم .

وفي المقطع السّادس تبقى عائشة هي المسيطرة على الفضاء الزّمني فتمتد لتتحول إلى رمز فرعوني "خوفو" و تعود، لتنال البركة من شمس الدّين الّذي عانقها و أمدّها بصفة الحلول، يقول البيّاتي :

لمّا تدخلُ امرأةٌ حجرةَ "خوفو" لا تدركُهَا الشّيخوخةُ و الموتُ وتبقى قادرةً، رغمَ مضيّ الأعوامِ، على الحبْ و عائشةُ كانتْ، تلكَ المرأةَ، أو هي أصبحتْ الآنَ لمّا قلّدها رايتهُ شمسُ الدّينِ وعانقهَا، لمّا قالَ لها كُوني :

(لارا أو ليلى أو هندْ) .

كوني ما شئتِ و كوني خاتمةَ العقدْ. [15]

يغيب القناع وتحضر "عائشة" ويحضر حب البيّاتي الكبير لهذه المرأة الأسطورية، الّتي يستدعيها هنا لتنال بركة الشّيخ، فتتعين في نساء أخريات، فهي (لارا أو ليلى أو هند) وهي"عشتار" واسطة العقد.

وبينما يأتي المقطع الأخير مختصرا، يختزل رمز النّاي في ديوان "شمس تبريز"، حين يقول البيّاتي: كانت عائشة في شفتي نايًا يبْكِي وأنا أحْكِي عنْ ألمِ الحبْ [16] تتحول عائشة إلى ناي يبكي بعد أن لامسته شفتا الشّاعر، والمعنى أُخذ من ديوان الرّومي الّذي زوّد « النّاي برمز مثالي للنفس الّتي لا يمكن أن تنطق بالكلمات إلاّ عندما تَمَسُّها شفتا المعشوق »[17]. والسّطران الثّاني والثّالث امتصّهما من قول مولانا جلال الدّين« النّاي يقص حديث الطّريق المملوء بالدّم، ويحكي قصص عِشق المجنون » [18] يقصد قيس بن الملّوح مجنون ليلى.

لقد استطاع "البيّاتي" باستحضار شخصية جلال الدّين الرّومي و ديوانه "شمس تبريز" أن يعبّر عن رؤيا خاصة متعلقة بالعشق، والحب، والبحث عن الخلاص من خلال رؤيا المولوي الهائمة في ملكوت العشق الإلهي عند إحلال روح الشّيخ شمس في الذات الإلهية .

الهوامش:

1- هو جلال الدين محمد بن محمد بن حسين بن أحمد بن قاسم بن مسيب بن عبد الله بن عبد الرّحمن بن أبي بكر الصّديق، ولد ببلخ في فارس سنة 604هـ/1207م . كان والده عالما وشيخا من شيوخ الصّوفية لقب بسلطان العلماء، تعلم بمدرسة أبيه وبعد أن كثرت غارات المغول على بلاد فارس هاجر مع أسرته إلى بغداد ثم

دمشق ومكة، مارس التّدريس بعد وفاة أبيه، واستقر بالأنضول في تركيا وبها كان أكثر إنتاجه الشّعري والنّثري منها : المثنوي، المجالس السّبعة، ديوان شمس تبريز، فيه مافيه ولقب بالرّومي نتيجة استقراره في الأنضول بلاد الرّوم، توفي سنة 682هـ/1273م.

2- ينظر: مولانا جلال الدين الرّومي، المثنوي، تر، ابراهيم الدسوقي شتا، ج1، المطابع الأميرية، دمشق، دط، 1996، ص: 7...30.

3- ينظر، جلال الدين الرّومي، مثنوي، تر، ابراهيم الدسوقي شتا، (م س)، ص: 15.

4- المرجع السّابق، ص: 16.

5- المرجع نفسه، ص: 23.

6- أتيماري شيمل، الشّمس المنتصرة، دراسة آثار الشّاعر الإسلامي الكبير جلال الدين الرّومي، تر، عيسى علي العاكوب، مؤسسة الطّباعة والنّشر، وزارة الثّقافة، طهران إيران، ط1، 1979، ص: 357.

7- عبد الوهاب البيّاتي، مملكة السّنبلة، (م س)، ص: 113.

8- أتيماري شيمل، الشّمس المنتصرة، (م س)، ص: 358.

9- المرجع نفسه، ص: 359.

10- عبد الوهاب البيّاتي، مملكة السّنبلة، (م س)، ص: 114، 115.

11- ينظر: عبد الكريم اليافي، دراسات فنية في الأدب العربي، مطبعة دار الحياة، دمشق ط1، 1972، ص: 305.

12- أتيماري شيمل، الشّمس المنتصرة، (م س)، ص: 363.

13- عبد الوهاب البيّاتي، مملكة السّنبلة، (م س)، ص: 116، 117.

14- سنائي الغزنوي، و فريد الدين العطار من كبار شعراء الصّوفية الّذين نظموا المثنويات وقلّدهم جلال الدين الرّومي في هذا النّوع من النّظم الفارسي ويذكر جلال الدين فضلها عليه فيقول :"العطار هو الرّوح، و سنائي هو بمثابة العينين". - ينظر: عبد المنعم الحنفي، الموسوعة الصّوفية، (م س)، ص: 208.

15- عبد الوهاب البيّاتي، مملكة السّنبلة، (م س)، ص: 118.

16- المصدر السّابق، ص: 119.

17- أتيماري شيمل، الشّمس المنتصرة، (م س)، ص: 359.

18- المرجع نفسه، ص: 357.